ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

المورسكيون والمجال المتوسطي والوعي بالتفاوت
إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي نموذجًا

د. محمد الغزواني
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
دكتوراه في التاريخ الحديث
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تُعَدّ إشكالية التفاوت، التي بدأت تتضح معالمها بين أوربا والعالم الإسلامي، منذ نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، من أهم الإشكاليات التي استأثرت باهتمام كبير من قبل باحثين ومؤرخين معاصرين عرب و أجانب، لكن من يدرس مخطوط "العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع" لصاحبه إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي، سيدرك أن هذه الإشكالية لاقت اهتمامًا كبيرًا من قبل صاحب المخطوط السالف الذكر، وهذ ما يجعل أن الكتابات حولها بدأت في مرحلة مبكرة تعود إلى القرن السابع عشر، وهي الفترة التاريخية التي عاش فيها صاحب المخطوط. اندرج تأليف هذا المخطوط، ضمن سياق تاريخي بات فيه المجال المتوسطي يعرف مجموعة من التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، بدءًا من القرن الخامس عشر الميلادي وحتى متم نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، فخلال هذه المدة الزمنية، اكتملت ملامح تلك التحولات. وفي غمرة هذه الأخيرة، جاء تصنيف المخطوط، في محاولة من صاحبه التحسيس ولفت الانتباه، إلى ما يجري في الضفة الأوربية من تطور وتقدم، وكل ذلك ارتبط في نظره بتزايد اهتمام الأوربيين بالبحر والملاحة والسلاح، والأخذ بكل ما من شأنه أن يساهم في جعل أوربا تفرض إيقاعها على باقي العوالم الأخرى وخاصة العالم الإسلامي. فمقاربته لهذا الموضوع ولو بشكل غير مباشر يؤكد أنه كان على وعي تام بهذا التحول الذي تسير عليه أوربا، والذي أصبحت توظفه من أجل الهيمنة على الآخرين المخالفين لها من حيث العقيدة. وحتى يحسب له وعيه المبكر بإشكالية التفاوت، التي أخذت تطبع المجال المتوسطي منذ القرن الخامس عشر، نبعت فكرة كتابة هذا المقال، إيمانا منا بأن الشخصية التاريخية، ستظل المحرك والمنتج الأساسين لصناعة التاريخ، ونظرًا لأهمية إشكالية التفاوت التي باتت معالمها اليوم بارزة للعيان، حاولنا من خلال هذا المقال الوقوف على مظاهرها من داخل مخطوط "العز والرفعة والمنافع" مسلحين بمنهج علمي رصين يروم رصد وتحليل الأسباب الحقيقية التي جاءت في المخطوط.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٢ يوليو ٢٠١٨
تاريخ قبول النشر: ٠٨ أكتوبر ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

المورسكيون، الجهاد البحري، المجال المتوسطي، ابن غانم الأندلسي

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0054798

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد الغزواني. "المورسكيون والمجال المتوسطي والوعي بالتفاوت: إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٨. ص٦٣ – ٧١.

مُقَدِّمَةٌ

شكل المجال المتوسطي على مدى قرون، مجالاً جغرافيًا خصبًا لعدد من المؤرخين والباحثين، نظرًا لطبيعة الأحداث والوقائع التي احتضنها، وعظمة الحضارات التي استوطنها سواء في ضفته الشمالية حيث أوربا المسيحية، أو في ضفته الجنوبية حيث الأمة العربية المسلمة. وسيظل بحكم موقعه الاستراتيجي المتميز الذي استلهم حضارات العالم منذ القديم ذاكرة تاريخية عذراء، فكل باحث أراد أن يعيد قراءة أحداثه التاريخية إلا ووجد فيه ما يستحق الدراسة والتحليل. فالمخطوطات التي كتبت حول المجال المتوسطي سواء التي تم الكشف عنها أو تلك التي لازالت حبيسة الرفوف،

تُعَدّ حاملاً معرفيًا مهما يتيح لكل باحث إمكانية الكشف عن عدة حقائق تاريخية، ما أحوجنا إليها اليوم لربط الماضي بالحاضر من جهة، وتجديد المعرفة التاريخية من جهة أخرى.

لم يعد علم التاريخ يهتم فقط بدراسة الماضي الإنساني، وكل ما يتصل به من أحداث وتحولات، وإنما بدأ يتجه في العقود الأخيرة إلى دراسة من هو مسؤول عن صناعة تلك الأحداث والوقائع والتحولات، فهذه الأخيرة لا يمكن أن تصبح ضمن دائرة التاريخ إلا من خلال "الشخصية التاريخية"، على اعتبار أن التاريخ بمختلف تفاصيله لا يمكن فصله عن الإنسان من جهة، ولا يمكن دراسته بمعزل عن "الشخصية التاريخية". ومن هذا المنطلق تكون الأحداث والوقائع التاريخية من جهة والشخصية من جهة ثانية عنصرين أساسيين ومتلازمين في المعرفة التاريخية وكل ما يتصل بها، كما أن فصل أحدهما عن الآخر مسألة صعبة في الكتابة التاريخية. ونظرًا لأهمية "الشخصية" ودورها في إنتاج الأحداث التاريخية وتطورها عبر الزمن، ارتأينا أن نقدم دراسة تاريخية لشخصية موريسكية معروفة عند البعض وغير معروفة عند البعض الآخر، فالكتابات التاريخية التي اهتمت بهذه الشخصية الموريسكية تبقى محدودة جدًا على الرغم من قيمتها التاريخية كشخصية موريسكية وازنة، ونظرًا لشح هذه الكتابات، قررنا أن نضيف ما يغني الذاكرة التاريخية، المتعلقة بهذه الشخصية. فالدراسات التي تحدثت عنها، سواء في المعاجم وكتب التراجم والسير والأعلام لم تقدم ما يفي بالغرض. ونظرًا لهذا الشح المعرفي الحاصل في الكتابات التاريخية حول هذه الشخصية الموريسكية نبعت فكرة البحث في كل ما يتصل بها، وتقديم إضافة في الموضوع.

الإضافة التي نسعى إلى تقديمها جزء وافر منها توفر لنا من خلال دراستنا وتحقيقنا لمخطوط "العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع"[1]، وبفضل ذلك وقفنا على معطيات تاريخية مهمة، فحرصنا أن نفصح عنها للقارئ بما يخدم التعريف بهذه الشخصية الموريسكية من الناحية التاريخية. فشخصية إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي، تُعَدّ من الشخصيات الموريسكية الوازنة في زمانها، لكنها لم تنل النصيب الأوفر الذي تستحقه خاصةً في مجال الكتابة التاريخية. ولكوننا راكمنا معرفة تاريخية جد متواضعة حول هذه الشخصية التاريخية، من خلال دراستنا للمخطوط السالف الذكر والذي يمثل قيمة علمية عالية ومصدر تاريخي مهم لا يمكن أن يتجاوزه كل باحث وهو يشتغل على كل ما يتصل بالسلاح الناري ومراحل تطوره، نبعت فكرة استثمار تلك المعلومات التاريخية التي كشفنا عنها، آملين أن يجد الطالب والقارئ والباحث ما يغني الذاكرة من معلومات تاريخية حول هذه الشخصية الموريسكية. فمَنْ هي هذه الشخصية الموصوفة بالموريسكية؟ وما البيئة التاريخية التي عاشت فيها؟ وما هي الظروف التي ساهمت في هجرتها من إسبانيا إلى منطقة الشمال الإفريقي؟ ولماذا استقرت بتونس حيث اختمرت لها فكرة تأليف أهم مخطوط حول السلاح الناري؟ وما طبيعة التحولات التي عاصرتها والتي بات يعرفها المجال المتوسطي منذ القرن الخامس عشر الميلادي؟ وكيف نظرت إلى تلك التحولات التاريخية التي أخذت تتبلور في هذا المجال المتوسطي؟ هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة المتفرعة عنها، سنحاول الإجابة عليها، والهدف في النهاية يبقى رسم الصورة التاريخية لهذه الشخصية الموريسكية.

أولاً: إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء: أصله، حياته، هجرته وانخراطه في حركة الجهاد البحري وتكوينه العسكري

١/١-أصله:

هو إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي الذي عرف في بعض المراجع التاريخية بلقب "الرياش"، وهذا اللقب وبعد البحث فيه تبين أنه ما هو إلا تحريف لكلمة "رايس" وهي كلمة عربية تطلق على ربابنة السفن البحرية عند العرب. ومن الأشياء الأخرى التي وردت مغلوطة حول اسمه الحقيقي في بعض المراجع التاريخية، تلك الإشارة التي وردت عند "الزركلي"[2] الذي وصفه بكونه "إبراهيم المعجام الرباش". وهذا الاسم وبعد التدقيق فيه وقياس درجة صحته تبين لنا في النهاية أنه هو الآخر غير صحيح وإنما اسمه الحقيقي هو "إبراهيم غانم الشهير بالرباش بن أحمد غانم الأندلسي"[3]، وبناءً على ما تقدم فإن "المعجام" ليس اسمه، وإنما هي "صفة" كأن نقول إن فلان يدعى باللغة الأعجمية أو العجمية كذا وكذا، و "الرياش" ليس إسمه ولكن تعني "ريس البحر"، وبالتالي الصفتين معًا ليس لهما أي علاقة بإسمه الصحيح.

٢/١-حياتـه:

ازداد إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي بقرية "نولش"[4] الواقعة بالقرب من إقليم غرناطة، وذلك خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر بحسب التقدير التاريخي، إذ ليس هناك تاريخ مضبوط لولادته

ومعظم المراجع والمصادر التاريخية التي تحدثت عنه لم تورد تاريخ ميلاده. لذلك وبحسب المؤشرات التي أوردها في كتابه "العز والرفعة" فإن فترة ولادته تلتقي ببداية عمل "محاكم التفتيش" الإسبانية التي اكتشفت أن القسم الأكبر من الأندلسيين الذين فضلوا المكوث في غرناطة وأحوازها، قد حافظوا على دينهم وجل مقدساتهم الإسلامية، وما يتصل بها من طبائع وأعراف وتقاليد إسلامية أخرى، على الرغم من تظاهرهم بالاندماج وقبولهم مبدأ التنصير. وبذلك تكون المرأة الأندلسية قد لعبت دورًا كبيرًا في الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية كما أشارت إلى ذلك الباحثة الإسبانية كارسيا أرينال[5].

وأمام هذا الواقع لم يكن أمام "محاكم التفتيش" من حل سوى إعدام الكثير من الأندلسيين بعدما شكت في ولائهم الديني للإسلام، كما أجبرت الكثير منهم على الهجرة إلى خارج حدود غرناطة. وفي هذا السياق لجأت عائلة ابن غانم الأندلسي إلى مدينة إشبيلية. وللإشارة فإن ابن غانم الأندلسي تظاهر كبقية الموريسكيين بالتنصير، وهذا راجع إلى البيئة الثقافية التي نشأ فيها وتعلمه للغة الإسبانية (القشتالية) التي شكلت وسيلة أساسية ستمكنه من إخفاء ولائه للإسلام من جهة، كما ستساعده كذلك في تعلم كل ما يتصل بفنون الصناعة البحرية من جهة أخرى.

٣/١-تكوينه العسكري:

اشتغل ابن غانم الأندلسي طيلة حياته بصناعة المدافع التي أتقنها وأبدع فيها، فأتاحت له فرصة ركوب البحر في الكثير من السفن الكبيرة خاصة تلك التي كانت تتجه إلى "العالم الجديد" والتي سماها ابن غانم الأندلسي في كتابه هذا بـ "الهنود المغربية البعيدة". وأثناء مغامراته مع البحر وتنقله الدائم بين الموانئ الأندلسية والأمريكية لم يكتف فقط بتعلم العلوم البحرية، وإنما تعلم أيضًا العلوم الحربية، وذلك من خلال مجالساته المتكررة لربابنة البحر الإسبان، وملاحظاته لمختلف أنواع التداريب المتعلقة بفن المدفعية وكل ما يتصل بأمور البحر.

يظهر من خلال قراءة "العز والرفعة" أن شخصية المؤلف المهنية مرت بمرحلتين أساسيتين: الأولى مرحلة الأخذ والتعلم على الأقل في مجال فن صناعة المدافع وكل ما يتصل بها من فروع عسكرية أخرى خاصةً صناعة البارود. وأهم ما ميز هذه المرحلة، التعلم عن طريق الاستماع والملاحظة والتجريب، وحسبنا في ذلك ما أورده في كتابه السالف الذكر حين قال: "وكانوا يجتمعون مع أكابر القوم للكلام في تلك الصناعة، وتارة يأتون بالكتب المؤلفة في ذلك الفن وهي كثيرة، لأن العارفين بالعلم المباشرين للعمل وغيرهم لما رأوا أن ملوكهم يعظمون أهل ذلك الفن ومن يؤلف فيه فتنوا به، وكنت أجالسهم وأحفظ بعض ما يتفقون عليه وأشتغل بيدي في المدافع". [6] أما المرحلة الثانية فتتمثل مميزاتها الأساسية في إشرافه المباشر على استعمال الآلات الحربية بعد هجرته إلى تونس، وخلال هذه المرحلة اختمرت لديه الكثير من الأشياء المرتبطة بصناعة المدافع.

إن المرحلتين السالفتان الذكر ساهمتا في بلورة شخصيته المهنية ذات التكوين العسكري، حيث انتقل من صفة الشخص المتعلم لفن هذه الصناعة الحربية إلى صفة القائد العارف بأسرارها وكل ما يتصل بها لينتهي به المطاف في الأخير إلى التأليف فيها والتنظير في أدق تفاصيلها، بعدما برزت شخصيته العلمية بشكل كبير. لم يسجل ابن غانم الأندلسي في كتابه مسار تعلمه وعلى يد من درس وتتلمذ، فرغم بعض الإشارات التي ساقها المؤلف بخصوص طريقة تكوينه خاصةً في المجال العسكري البحري إلا أنها تظل غامضة ومبهمة. فالمؤلف لم يذكر كيف تعلم، وبأي طريقة اكتسب خبرته العسكرية، كما أنه لم يشر إلى أي أحد كان له الفضل في تعلمه، الأمر الذي يدفعنا منذ البداية إلى ترجيح فرضيتين: الأولى أنه أتقن صناعة المدافع بالتجربة والملاحظة باعتبار أنه اشتغل في هذه الصناعة إلى جانب الإسبان كموريسكي متخفي.

أما الفرضية الثانية مفادها أن المؤلف تتلمذ ربما على يد بعض العلماء النصارى لكن دون أن يذكر أي اسم لهؤلاء وحجتنا في ذلك أنه عاين مجالس التعليم وربما كان تلميذا في تلك المجالس، وهذه الفرضية يثبتها قوله التالي: "إذا أراد أحد أن يكون من جملة التلاميذ فيلتمس فيه صحيح البدن، ذو قوة، ليس بضعيف ولا رهيف ولا أشل ولا أعور ولا أصم ولا سكران (مدمن خمر)، ويأتي ببينة أنه نصراني قديم في الأصل..." [7] فهل كان ابن غانم فعلا تلميذا داخل مجلس الربابنة الإسبان؟ أم أن مواصفات هذا التعليم العسكري وصلت إليه كخبر أي كرواية شفهية فقط؟ فبالعودة إلى النص، لا نجد أي إشارات تثبت هذه الفرضية لكن دائمًا يعترف أنه أخذ الكثير من أمور هذه الصناعة عن طريق الملاحظة والتجريب، وهذا ما استنتجناه عندما قال في معرض حديث آخر: "وكنت أجالسهم وأحفظ بعض ما يتفقون عليه وأشتغل بيدي في المدافع وجميعهم لا يظنون في إنني أندلسي". [8]

شكلت فترة التخفي العقائدي وإظهار التنصير أهم فترة تاريخية ميزت حياة ابن غانم الأندلسي، فهذه الفترة التي عاش فيها متخفيا مضمرا هويته الأندلسية ذات الجدور الإسلامية لم تكن بالطويلة، إذ سرعان ما تم اكتشاف تستره العقائدي الذي كان سبب دخوله السجن إلى أن خرج منه بسبب شخص وصفه بكونه "واحدًا من أكابر الإسبان" الذين كانوا من رفاقه في السفر بحرًا، والذي وقف إلى جانبه، بل وتوسط له حتى تم إطلاق سراحه. لكنه تعرض بعد ذلك لمضايقات جعلت حياته صعبة فحاول الحصول على إذن بالهجرة إلى الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط، لكنه إذن قوبل بالرفض من قبل السلطات الإسبانية[9]، الأمر الذي اضطره إلى دفع رشوة حتى حصل على غايته. ويرجح أن تلك الهجرة تمت حوالي سنة (١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م)، وهي هجرة تزامنت مع فترة طرد الموريسكيين من الأندلس.

٤/١-هجرته وانخراطه في حركة الجهاد البحري:

هاجر ابن غانم الأندلسي مع مجموعة من بني قومه إلى تونس، وذلك في عهد الداي عثمان وحجتنا في ذلك ما نقله لنا في هذا الكتاب بقوله: "فخرجت من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين مع جملة الأندلس، وكانوا منعوني من ذلك فعملت بنية بأنني من الأندلس لنخرج معهم، ولم ينفعني شيئ من ذلك. ثم أنفقت دراهم في الرشوات، وخرجت من بينهم وجئت إلى مدينة تونس حرسها الله فوجدت فيها كثيرا من الأصحاب والأحباب من الأندلس. وأقبل علي أمير المدينة عثمان داي رحمه الله تعالى وقدمني على مائتي رجل من الأندلس وأعطاني خمسمائة سلطانية (دينارًا) ومائتي مكحلة ومائتي سكينا وغير ذلك ممن يحتاج إليه في سفر البحر".[10]

إن الشهادة التي قدمها لنا في هذه السطور تحمل تركة تاريخية مليئة بالأحداث، كما أنها تستحق إعادة قراءتها بمنطق البحث والتحليل التاريخيين، لإحياء عدة قضايا لم يصرح بها جهرا، لكن دلالاتها التاريخية تقتضي الوقوف عندها نظرا لأهميتها التاريخية. فإذا عدنا فقط إلى هذه الشهادة وتلك التي سبق التذكير بها من قبل، فإننا نستنتج أن المؤلف رغم اكتشاف تستره العقائدي لم يتخذ ضده أي إجراء من تلك الإجراءات التي كانت "محاكم التفتيش" تنزلها بمن كانت تعتقد أنه لازال على علاقة بثقافته العربية الإسلامية. المعاملة السيئة التي اعتادت عليها "محاكم التفتيش" لم تستعملها في حق ابن غانم الأندلسي، بل أكثر من ذلك لم يسمح له حتى بالهجرة خارج إسبانيا رغم مطالبته بذلك. فلماذا تعاملت السلطات الإسبانية معه بهذا الشكل؟

يستنتج مما سبق أن شخصية ابن غانم الأندلسي كان لها من التكوين العسكري وخاصةً في مجال البحرية، ما جعلها قادرة على نقل تلك المعرفة العسكرية، التي شكلت منذ القرن الخامس عشر الميلادي إحدى أهم مقومات التفاوت، بين الضفة الشمالية والجنبية للمجال المتوسطي. وبحكم أن الإسبان كانوا يدركون مدى معرفة وإتقان شخصية ابن غانم لفنون هذه الصناعة، ربما من هنا نبعت فكرة عدم القبول بهجرته نحو البلاد العربية الإسلامية، لأنهم اعتبروا السماح له بالهجرة، يعني نقل تلك المعرفة العسكرية وتصديرها نحو البلدان العربية والإسلامية.

لقد تمكن ابن غانم الأندلسي من الهجرة نحو شمال إفريقيا وتحديدًا نحو تونس التي اعتبرت الوجهة المفضلة للموريسكيين والأندلسيين عمومًا. ومنذ وصوله إلى تونس تزعم "حركة الجهاد البحري" بأمر من داي تونس، حيث خاض مجموعة من المعارك ضد الإسبان في عرض البحر الأبيض المتوسط، وتحديدا قبالة السواحل التونسية. وحول هذه المعارك يخبرنا ابن غانم الأندلسي عن إحداها وقعت في عهد الداي عثمان والتي كاد أن يشرف فيها على الهلاك.[11] كما خاض الرجل كذلك معارك بحرية ضد النصارى أبرزها تلك التي يصفها بقوله: "وبعد أن بريت ركبنا البحر وسافرنا فيه في طلب الكفار وأموالهم. ونحن بقرب مدينة مالقة وهي على حاشية البحر الصغير تلقينا غرابًا، وذلك في نصف شهر غشت والبحر ساكن ولا شيء من الرياح، ووقع الحرب الشديد ومات من الجانبين خلق كثير ودام الطراد الكبير حتى لم يبق منا إلا القليل.."[12] وبانتهاء المعركة اعتقل ابن غانم من قبل الإسبان وسجن لمدة سبع سنوات، وبعد ذلك خرج من السجن بصفقة تمت بين الداي يوسف وحاكم غرناطة كان موضوعها تبادل الأسرى بين الجانبين. ونتيجة ذلك عاد إلى تونس وحط رحاله بمرفأ حلق الواد[13] حيث عين رئيسا على شؤون المدفعية، وفيه ألف كتابه "العز والرفعة"[14]، وبهذا التأليف يكون ابن غانم الأندلسي قد كان سباقًا للكتابة في مجال الصناعة الحربية بمنطقة شمال إفريقيا، وبتونس بقي مشرفًا على كل ما يتعلق بمجال البحر وسلاحه إلى أن بعد سنة ١٠٤٨هـ بقليل. فما الظرفية التاريخية التي عاصرها ابن غانم الأندلسي؟

دراسات

ثانيًا: عصر المؤلف والإحساس بالتفاوت

١/٢-عصر المؤلف:

عاصر المؤلف فترة تاريخية أصبح فيها المجال المتوسطي يعرف تحولات مهمة، فهو ولد حوالي الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادي، وهذه الحقبة الزمنية تميزت بأحداث تاريخية غيرت المعالم التاريخية لهذا المجال المتوسطي. إن فهم هذه الحقبة التاريخية وانعكاساتها على ضفتي البحر الأبيض المتوسط لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال فهم السياق العام الذي أنتج هذه التحولات التاريخية التي عاصرها المؤلف والتي أصبح المجال المتوسطي مسرحًا لها. وهكذا شكل حدث خروج الموريسكيين من إسبانيا الحلقة الأهم في تلك التحولات التاريخية التي ارتبطت بالبحر الأبيض المتوسط منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي. فحدث طرد الموريسكيين مؤشر تاريخي يعبر عن هذا التحول التاريخي، فالكتابات[15] التي عاصرت حدث الطرد بررته محاولة بذلك إثبات حقيقة متعلقة بأحقية قرار الطرد، بل أكثر من ذلك نظرت إليه بكونه حدث لا يتعارض أبدًا مع القيم الإنسانية والأخلاقية. معطى تاريخي آخر لا يمكن فصله عن جملة المتغيرات التاريخية التي عرفها هذا المجال المتوسطي يتمثل في وصول فليب الثاني إلى الحكم في إسبانيا (١٥٥٦- ١٥٩٨م)، وسيطرة العثمانيين على أجزاء واسعة من البحر الأبيض المتوسط.

فوجود العثمانيين في كل من إفريقيا وأوربا إبان مرحلة التوسع العثماني الذي وصل ذروته خلال القرن السادس عشر الميلادي، جعل منهم قوة تحاصر المجال المتوسطي وتتحكم فيه خاصة من الناحية الإقتصادية، وبالتالي أصبح العنصر الموريسكي الذي تعاطف معه العثمانيون في نظر الإسبان يشكل الخطر الاستراتيجي القادم. ومن أجل استباق هذا الخطر جاء قرار ١٥٦٧م الذي نص على منع الموريسكيين من استعمال لباسهم ولغتهم. فمثل هذا القرار سببًا أساسيًا في حرب غرناطة (١٥٦٨م-١٥٧١م). فشكل انهزام الموريسكيين في كل مواجهاتهم مع الجيش الإسباني، وما تلاه من ملاحقات في حقهم من قبل "محاكم التفتيش" تحولاً آخر في البحر الأبيض المتوسط. فكيف تعامل الموريسكيون مع جملة هذه التحولات وهذا الواقع المتوسطي الذي وجدوا أنفسهم محاصرين فيه. إشكالية سننطلق منها لإثبات بعض الحقائق التاريخية حول أشكال النضال التاريخي في الفكر العسكري الموريسكي من جهة، وكيف استطاع البعض منهم أن يحمل لهذه الأمة مشروعًا عسكريًا كان الأخذ به وفهمه وتوظيفه في سياق تلك التحولات التي بات يشهدها المجال المتوسطي، سيغير مجموعة من تلك الحقائق التاريخية التي أصبحت تعرفها ضفتا البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الخامس عشر الميلادي.

فتراجع الدور التاريخي للدولة الإسلامية أصبح واضحا مع عصر ملوك الطوائف، بعدما انقسمت هذه الدولة إلى إمارات وأصبحت تقاتل بعضها بعضا[16] الأمر الذي نتج عنه ضعف الوجود الإسلامي ليس كعقيدة بل كمجتمع بجزيرة الأندلس. فإذا كان عصر ملوك الطوائف مثل وبلا منازع بداية النهاية لحضارة أهل الأندلس كما يحلوا للبعض تسميتها، فإن سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م جسد نهاية الوجود لدولة المسلمين بالأندلس. لكن رغم هذه الحقيقة التاريخية، استمر الوجود الإسلامي داخل بلاد الأندلس من قبل طائفة من العلماء الموريسكيين التي حاولت بما تمتلك من قوة وأصالة أن تعلن نضالها ضد من اعتقدت أنه شرد أهلها ومزق ثقافتها وحضارتها في أكثر من مناسبة[17].

أعلن الموريسكيون نضالهم الأول نصرة لقضيتهم مباشرة بعد سقوط آخر معاقلهم الإسلامية بغرناطة سنة ١٤٩٢م، وكان ذلك واضحا من خلال عدم قبولهم لفكرة الاندماج والذوبان في المجتمع الإسباني. وجاء نضالهم الثاني عام ١٥٦٨م، والثالث مع خروجهم الأخير سنة ١٦٠٩م[18]. ومن بقي بالأندلس واجه هذا الواقع رغم ضعف الإمكانيات لكن بثقة معنوية كبيرة، وفي غياب أي مساعدة حقيقية بحكم التحولات والمتغيرات السياسية التي كان يشهدها المجال المتوسطي آنذاك، فظلوا يواجهون واقعهم بكل السبل المتاحة، فتعايشوا مع هذا الواقع بإظهار التنصير دون أن ينسوا العقيدة أو يتنكروا للتراث العربي الإسلامي. وشكل تشبث هذه الطائفة الأندلسية -الموصوفة ظلما بالموريسكية- بدينها وثقافتها رغم ما تعرضت له. وهكذا شكل هذا الصمود وهذا الثبات الحلقة الأساسية في النضال الموريسكي ضد الإسبان الذين راهنوا على فكرة اندماج الموريسكيين في الحضارة الإسبانية كشكل من أشكال التصفية العرقية والحضارية لهذه الطائفة.

وإلى جانب من بقي بالأندلس في ظل هذا الواقع الجديد، هناك طائفة أخرى اختارت الهجرة لتبدأ فصولاً أخرى من المعاناة، إذ تعرض هؤلاء وهم في طريق الهجرة للسرقة والنهب في البر والبحر، ومع وصولهم إلى منطقة شمال إفريقيا التي ظلت الوجهة المفضلة لكثير منهم بحكم عامل القرب الجغرافي والإحساس بالانتماء العروبي والإسلامي

لهذه الضفة المتوسطية، إضافة إلى عوامل أخرى تتعلق بالوجود العثماني بهذه المنطقة وتعاطفه الكبير مع القضية المورسكية. وبمجرد وصولهم اختاروا طواعية الانخراط في الجهاد البحري للتعبير عن استمرار دورهم التاريخي في هذا المجال المتوسطي، وهو أسلوب كذلك رأى فيه كثير وسيلة من وسائل الانتقام من الإسبان الذين أخرجوهم من ديارهم ونكلوا بهم على يد محاكم التفتيش[19]. وحول هذا الجانب يحدثنا المؤلف بقوله: "... وجئت إلى مدينة تونس حرسها الله فوجدت فيها كثيرًا من الأصحاب والأحباب من الأندلس. وأقبل علي أمير المدينة عثمان داي رحمه الله تعالى وقدمني على مائتي رجل من الأندلس وأعطاني خمسمائة سلطانية ومائتي مكحلة ومائتي سكينا وغير ذلك ممن يحتاج إليه في سفر البحر..." [20].

٢/٢-الوعي بالتفاوت وسبل تداركه:

تبنى المورسكيون الجهاد البحري في سياق الصراع العسكري والبحري ضد الأوربيين في البحر الأبيض المتوسطي. وفي سياق هذه التحولات جاء تصنيف كتاب" العز والرفعة"، فالكتاب عندما نضعه في السياق التاريخي العام الذي كان يميز حوض البحر الأبيض المتوسط، نشعر بأن المؤلف يحاول أن يقدم بعض المظاهر المرتبطة بإشكالية التفاوت التي أخذت تميز الضفة الشمالية مقارنة مع الضفة الجنوبية. فالكتاب بقيمته العلمية يمثل مشروعًا نهضويًا جاء ليتدارك بداية تجاوز أوربا للأمة العربية الإسلامية، ومن جهة أخرى جاء تعبيرًا عن الصمود التاريخي الذي خاضه المؤلف ضد أوربا المسيحية بشكل عام وإسبانيا المسؤولة عن مأساة مسلمي الأندلس بشكل خاص. فدواعي تصنيفه لم تكن بهدف التأليف، بقدر ما كانت نتيجة حتمية لوعي هذا الرجل الأندلسي بحجم التحولات التي بدأ يعرفها الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، والتي أخذت تفرز تناقضات جوهرية بين ضفتيه الجنوبية والشمالية، وهي تحولات ليست في صالح الأمة العربية والإسلامية. وحول هذا التحول التاريخي الذي بدأت معاليمه تتضح مع أواخر القرن السادس عشر يحدثنا الباحث الفرنسي "جاك بيرك" فيقول: "إن منطقة شمال إفريقيا وتحديدًا المغرب حتى القرن السادس عشر لم يكن مجالاً متوسطيًا بعيدًا كل البعد عن السيرورة الحضارية العامة التي هيمنت على بلدان شمال البحر الأبيض المتوسط، إلا أنه ابتداءً من القرن نفسه بدأت الهوة الحضارية بين الضفتين تتسع وتتعمق فبات تقدم أوربا شرطًا مرافقًا لتأخر المغرب بل وتأخر كل البلدان العربية". [21]

هذه الهوة التي بدأت تتسع لصالح الضفة الشمالية من البحر المتوسط، كان لها ما يبررها من الناحية التاريخية، فالتحولات التي عرفها المجال المتوسطي، والتي لم تكن في صالح الأمة العربية بشكل عام والعنصر المورسكي بشكل خاص، حدثت بسبب التحول السياسي الذي حصل في أوربا وخاصة ذاك الذي أنتج مفهوم " الدولة القومية -État Nation"، وهذا ما أكده فرناند برودل حيث قال: "تتلخص مأساة البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر في نمو الكيانات السياسية العملاقة... لكن بعد مرور هذا القرن السادس عشر تخلت الظروف السياسية عن هذه الأجسام الضخمة لصالح الدولة الوطنية الحديثة"[22].

نعتقد أن المؤلف كان واعيًا قبل أن يؤلف هذا الكتاب، بأن الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط وتحديدا إسبانيا، تحاول الانفراد بالمبادرة من أجل فرض إيقاعها على الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط. لذلك ألف هذا الكتاب في محاولة منه، على الأقل التأسيس لمرحلة جديدة قد تعيد التوازن بين ضفتي المتوسط، بعدما اتسعت الهوة لصالح الضفة الشمالية من هذا المجال المتوسطي، وأصبحت أوربا تستحوذ على المبادرة، في حين أصبح العالم الإسلامي يدخل مرحلة الانكماش والتراجع.

انطلاقا من هذا الوعي التاريخي، حاول المؤلف أن يستبق رياح هذا التجاوز، ويضع هذا التصنيف الذي اعتبر أهم تأليف عربي إسلامي في مجال كان حكرا على طائفة من أهل أوربا قبل فترة القرن السادس عشر[23]. كما حاول المؤلف من خلال مضامين هذا الكتاب، أن يطلق صيحة تاريخية نحو الأمة الإسلامية يدعوها إلى الفطنة واليقظة، وكذلك إلى اكتساب مبادئ المعرفة العسكرية وإعداد السلاح إذا هي أرادت مواجهة أوربا الآخذة في الصعود والتطور. كما كان واعيًا كذلك بحجم التأخر الذي كانت تعرفه مجموعة من الأقطار العربية خاصة على مستوى إدارة المجال العسكري، وحول هذا الجانب يقول: "ولما رأيت الطائفة المسماة بالمدافعيين المرتبين لا معرفة لهم بالعمل (يستخدمون المدافع بجهل)، وأنهم لا يعمرون ولا يرمون بما يقتضيه العمل عزمت على تصنيف هذا الكتاب لأن كل مدفع له قيمة ومال وتعب في إيجاده (أي في صناعته)"[24].

فإدراكه لمظاهر التجاوز التي كانت تميز الضفة الشمالية مقارنة بالضفة الجنوبية، والتي لم تكن في صالح الأمة العربية والإسلامية. وانطلاقًا من الصورة التي كونها ابن غانم الأندلسي عن الضفة الشمالية من البحر الأبيض

المتوسط، وبحسب المصلحة قرر تصنيف هذا الكتاب الذي أراده أن يكون مشروع يقظة ونهضة في الفكر العسكري العربي الإسلامي، بحسب ما يفهم من سياق كلامه: " ولا قصدت به نفعاً دنياوياً، بل الإخلاص لله تعالى بترجمته، لنكتب منه نسخًا ونبعثها إن شاء الله لبعض المواضع في بلاد المسلمين، ونذكر فيه ما يحصل النفع من وجوه، وللمدافعين القائمين بما يوجب عليهم من الحقوق فيما تصدَروا إليه وتكلفوا به من خدمة أمراء المسلمين، ويحصل لهم الأجر عند الله سبحانه بتفريج المسلمين بإتقان أعمالهم وتخويف أعدائهم الكافرين"[25].

مكنتنا قراءتنا المتكررة لهذا المخطوط، الكشف عن مجموعة من القضايا التاريخية المرتبطة تحديدا بالمجال المتوسطي، وتمثل إشكالية "التفاوت" أهم قضية عبر عنها المؤلف، فالتعبير عنها بحمولتها التاريخية مسألة من الصعب إثباتها، لكن الإشارات حولها متعددة سواء بوعي من المؤلف أو بغير وعيه منه. فرغم انتمائه الثقافي إلى الحضارة العربية الإسلامية إلا أنه أشار في أكثر من مناسبة وبإعجاب كبير بما كان يحصل في الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط ليس كمجال جغرافي آخذ في التطور، وإنما كحضارة إنسانية همها الوحيد والأساسي هو التطور والتقدم، وحول هذه الجوانب يحدثنا قائلاً: "وقد رأيت بين النصارى حسن التدبير والاعتناء بكل ما يحتاج إليه من الأمور في شأن المدفع" [26]، ويزيد على ذلك ويقول: "واطلعت عليهم وتحققت أن لهم تدبيرًا حسنًا وترتيبًا عظيمًا لآلات الحرب البارودية" [27]. وبقدر ما أعجب بكثير من الأمور الموجودة في الحضارة الأوربية بحكم الإقامة الطويلة وسط الإسبان سواء كمواطن في بادئ الأمر أو كموريسكي متخفي من محاكم التفتيش، بقدرما وقف الرجل على مجموعة من مظاهر التأخر عندما رحل عن جزيرة الأندلس نحو الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط، وقد عبر عن ذلك بقوله: "ولما رأيت المسماة بالمدافعيين المرتبين لا معرفة لهم بالعمل... ولا يرمون بما يقتضيه العمل...عزمت على تصنيف هذا الكتاب"[28].

شكلت هذه الشهادة التاريخية بالنسبة إلينا إشارة قوية استخلصها المؤلف من خلال مقارنته لأوضاع الجيوش الأوربية والجيوش العربية الإسلامية، خاصةً على مستوى الخبرة والكفاءة العسكرية. ويبدو أن تلك المقارنة أوصلته إلى مجموعة من الاستنتاجات التي نتفق معه فيها ولعل أهمها تدني الخبرة الحربية وكل ما يتصل بها، إضافة إلى جهل الجنود (المدافعيين) العرب والمسلمين بفنون المدفعية وأسلحة البارود. وتلك الاستنتاجات وغيرها تبدو واضحة من خلال قوله: "ثم يوكل على تسخيره والرمي به من يكسره ويفنيه في الرمية الأولى أو في الثانية "[29]. ورغم أن الكتاب كتب بهدف التعريف بصناعة الآلات الحربية، التي مثلت بالنسبة للمؤلف وحسب قوله "أشرف الصنائع وأحسنها والتي يحتاج لها في أمور السياسة"[30] إلا أنه كان واعيا بمسألة التفاوت الموجودة بين ضفتي المتوسط، وما تأليفه لهذا الكتاب إلا لكي تدرك الطبقة الحاكمة في الأمة العربية والإسلامية هذا التفاوت الذي أخذت معالمه السياسية والعسكرية وحتى الحضارية تظهر للكل، آملاً أن تأخذ المجتمعات العربية والإسلامية بمبادئ التقدم والتطور انطلاقًا من المعرفة الحربية التي ركز عليها من خلال هذا المخطوط، ومن تم خلق توازن بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط.

فإذا كان الاقتصاد البحري شكل وبلا شك مصدر تفوق أوربا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر[31]، فمؤلفنا يبدو واعيًا بهذا الجانب الذي مثل الحجر الأساس في فرض واقع التفاوت بين الضفتين، لذلك كان حريصًا على نقل كل هذه التفاصيل الدقيقة عن كيفية الوصول إلى امتلاك المعرفة العسكرية، كما اعتبر أن أسس البحرية العسكرية لا يمكن فصلها عن المقومات الأساسية للبحرية التجارية خاصةً في تلك الفترة التاريخية. فإذا كان قد ركز على ضرورة الأخذ بمنهج امتلاك المعرفة الحربية عموما، فإنه دائمًا يربطها بأمور البحر، وبالتالي الصورة الذهنية التي كان يستحضرها تتمثل في كون أن السيطرة على البحر لا يمكن ان تحصل بمعزل عن امتلاك هذه المعرفة العسكرية وفي مقدمتها السلاح الناري. وحول هذا الجانب فسر كيف أن أوربا بشكل عام وإسبانيا بشكل خاص اهتمت بالصناعة البحرية وأنشأت أوراشا لخدمة هذه الصناعة، التي حظيت باهتمام الطبقة الحاكمة التي عظمت هذه الصناعة ووفرت لها شروط النجاح.

خَاتِمَةٌ

نستنتج من خلال ما سبق، أن مؤلف "العز والرفعة" عندما أقدم على تأليف هذا الكتاب، ربما كان يسعى إلى أن تأخذ الأمة العربية الإسلامية بالنظرة التاريخية الواعية المنفتحة على المستقبل من أجل تدارك هذا التفاوت الذي بدأت معاليمه تتسع أكثر فأكثر في المجال المتوسطي، لكن تحقيق هذا الهدف كان يقتضي من هذه الأمة العودة لدراسة تراثها وماضيها إذ هي أرادت مسايرة هذا التحول التاريخي، وهنا نستحضر ما قاله الباحث قسطنطين زريق حول ضرورة العودة إلى هذا الماضي: "لا بد من العودة إلى الماضي من أجل استخراج مقومات الحاضر وشواغله من أجل التخطيط الصائب للمستقبل".[32] فهذا المستقبل هو الذي كان الشغل الشاغل لمؤلف "العز والرفعة"، لذلك كان هدفه الأخذ بالمعرفة العسكرية بما يحقق المنفعة لهذه الأمة، وفي نفس الوقت كان يحاول أن يشكل بواسطة هذه العرفة العسكرية السياق تحديث الأمة والنهوض بأوضاعها العسكرية على أمل أن تقف في وجه أوربا التي أصبحت في اعتقاده بحكم تفوقها العسكري تهدد العديد من البلدان العربية الإسلامية. فإذا كانت الحداثة سيرورة وديناميكية لا تتوقف، فإننا نعتقد أن تأليف هذا الكتاب جاء ليساهم في هذه السيرورة، إلا أن الأخذ به على الشكل الذي أراده ابن غانم الأندلسي لم يتحقق بسبب غياب شروطه التاريخية والموضوعية. وبذلك ظلت صيحة هذا المورسكي قبل وبعد وفاته غير مفهومة بأبعادها التاريخية والاستراتيجية في أكثر من قطر عربي - إسلامي.

الهَوامِشُ:

(1) مخطوط "العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع"- يوجد في الخزانة الوطنية، الرباط، تحت رقم ج ٨٧.

(2) خير الدين الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر،٢٠٠٢، ص، ٣٠.

(3) هكذا أثبت المؤلف نسبه في المتن. انظر: ابراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، **العز والرفعة**، ص،٩.

(4) قرية توجد بالقرب من إقليم غرناطة. انظر: إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سابق، ص، ٩.

(5) نقلاً عن: محمد رزوق، **الأندلسيين وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر**، إفريقيا الشرق، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨، ص، ٦١.

(6) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص ٩.

(7) المرجع نفسه، ص، ١٨.

(8) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره ص، ١٠.

(9) المرجع نفسه، ص، ١٠.

(10) المرجع نفسه، ص، ١٠.

(11) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص، ١٠.

(12) المرجع نفسه، ص، ١٠.

(13) يقع على الساحل التونسي، ويحتوي على قلعة حصينة تشتمل على برجين: أولهما البرج المائي، وثانيهما برج الملح. وقد كان محط صراع بين الإسبان والعثمانيين لفترة طويلة، ولم يتمكن العثمانيون من ضمه إلا في غشت ١٥٧٣م. انظر، نيقولاي إيفانوف، **الفتح العثماني للأقطار العربية (١٥١٦-١٥٧٤م)**، ترجمه إلى العربية يوسف عطا الله، وراجعه مسعود ظاهر، دار الفارابي، بيروت، ط. ١، ١٩٨٨، ص٢٢٨.

(14) محمد حجي، "**الموريسكيون والجهاد البحري في المغرب الكبير**"، ضمن ندوة "الموريسكيون في المغرب" مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الندوة الثانية، مطبعة المعارف الجديدة – الرباط، ٢٠٠١، ص، ٧١.

(15) انظر مقال للأستاذة ميلودة الحسناوي منشور بمطبوعات المملكة المغربية، "**الموريسكيون في المغرب**"، الندوة الثانية، ٢٠٠، ص، ١٢٦.

(16) أنطونيو دومينقير هورتز برنارد بنثنت، ترجمة عبد العال صالح طه، **تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيون** "حياة... ومأساة أقلية"، دار الإشراق، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ٥.

(17) المرجع نفسه، ص،٧.

(18) المرجع نفسه، ص، ١٤.

(19) محمد رزوق، **الأندلسيين وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر**، إفريقيا الشرق، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨، ص، ٢١٠.

(20) إبراهيم ابن أحمد غانم الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠.

(21) Jacques Berque, Ulemas, fondateurs, insurges du MaghrebXVII siècle, la bibliotheque arabe, collection hommes et societes (Paris: Sindbad, 1982) p.18.

(22) Fernand Braudel ,La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II,Paris, ArmandColin, 1966, T.2, P.9et 47.

(23) حول هذا الجانب المتعلق باحتكار المعرفة العسكرية خاصة من قبل الإسبان أنذاك يقول صاحب "العز والرفعة": "ويكون للقبطان المدافعي بيت أو موضع ليجتمع فيه بعض تلاميذه في صناعة آلات البارود، فيجلس هو على كرسي عالي وتلاميذه أنزل منه، حينئذ إذا أراد أحد أن يكون من جملة التلاميذ فيلتمس فيه صحيح البدن، ذو قوة،ليس بضعيف ولا رهيف ولا أشل ولا أعور ولا أصم ولا سكران، ويأتي ببينة أنه نصراني قديم في الأصل وأن لا يكون من الإنْقْلِيْزْ ولا فرنجي ولا فْلَمِنْكْ ولا يكون إلا اشْبَانْيُولِ وإيطَالْيَانْ معناه من بلاد اطاليه". انظر: إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص١٨.

(24) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص،١١.

(25) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص، ١١.

(26) نفسه، ص، ١٧.

(27) نفسه، ص، ١٧.

(28) نفسه، ص، ١١.

(29) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص ١١.

(30) المرجع نفسه، ص،١١١٢.

(31) عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوربا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ ص، ٣٣٧.

(32) قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣،١٩٧٤، ص، ٢٨ وص٤٥.